(اركيولوجي) ، مع « ازدهار » الامبريالية ، في شكل فكر اتنوغرافي ، في النصف الاول من هذا القرن ، ولكم عانت منه شعوب المستعمرات كلها ، بلا استثناء ، في افريقيا واسيا واميركا اللاتينية · الم يذهب ذلك الفكر في شططه الى حد اخراج هذه الشعوب من **دائرة العقل** ، حين خصها بالفكر الديني او السحري او الاسطوري ، اي غير المنطقي وغير العقلي ، فكان لها الفكر البدائي، وكان هو الفكر كله ؟ ليست هذه الدراسة مجالا لمثل هذا البحث ، على اهميته· واذ نكتفي هنا بالاشارة الى ان اندحار هذا الفكر يسير في خط صعود حركة التحرر الوطني ، نعود الى موضوعنا الرئيسي لنتبين أن « الفرادة » اللبنانية لم يقبض عليها «الفكر اللبناني» الا لان عين الايديولوجية البرجوازية الامبريالية هي التي استنهضتها ، فأتت على صورتها اثرية : وكان ما كان من غريب بشرهم فيها قديم يتجدد ، فيتصنف في مجموعات « طائفية » ليست مجموعات عرقية او اثنية او حضارية الا لان تلك العين ارادتها كذلك · هذا يعني ، بوضوح وفظاظة ان مجموعة « الطوائف » هذه التي يتكون منهالبنان ، هي **وليدة** هذه العين التي بها **تكونت** · انها وليدة النظر في الواقع الاجتماعي التاريخي اللبناني بعين هذه الايديولوجية البرجوازية الامبريالية ، ومن **موقعها الطبقي** · والعين هذه هي ، في واقعها الفعلي ، **ممارسة طبقية** ، ايديولوجية وسياسية · لئن كنا الان بصدد نقض هذه الممارسة الايديولوجية ، فان نقض الممارسة السياسية سيأتي بعد حين · ويتكامل المنهج الشيحاوي ويتأكد ، بحسب هذه العين نفسها وموقعها الطبقي · ففي نص اخر يقول شيحا : « نحن لا ننسى ، بالطبع ، اننا نهتم ، في هذه اللحظة ، بلبنان اليوم · لكن لبنان اليوم ليس جبالا وشطآنا-فقط ، انه ايضا بشر · والبشر هؤلاء ، علينا ان نحدد ملامحهم حتى نستخلص من الماضي معرفة الحاضر ودرس المستقبل » (١٤) ·

اهم ما في هذا النص جملته الاخيرة ، فهي التي يجب تدقيق النظر فيها · انما ، قبل ان نقوم بهذه المهمة ، نلفت النظر الى هذا المنطق من الفكر الذي تتفكك فيه الاشياء ، فتستحيل عناصر تصطف جنبا الى جنب : منها الجبال ومنها الشطآن ، لكن منها ايضا البشر · ومن المفيد ، في تعريف لبنان ، اليوم، ان نعمل بنصيحة شيحا ، والا ننسى البشر · وتبقى العناصر **عناصر** ، اذ تختفي فيها العلاقات ، بفعل ذلك المنطق من الفكر · ليس من باب الصدفة ان يكون للعنصر **الجغرافي** المرتبة الاولى بين هذه العناصر ، وان يحتل البشر (او العنصر البشري) في تراتبها المرتبة الثانية · لكن هذا من باب اللغة في ضرورتها الايديولوجية · واذ يخرج لبنان من دائرة العقل ومن دائرة التفسير العلمي ، ويغيب العامل الاقتصادي في فهم واقعه الاجتماعي الحاضر والماضي، ينطرح على « الفكر اللبناني » سؤال بحجم هذا التغييب : كيف التفسير ؟ وبأي نوع من السببية يتم ؟ مهما كان الفكر مغرقا في السحر ، فلا مفر له من مجابهة